

المواطنة في فكر "جون جاك روسو"

Citizenship in the Thought of John Jacques Rousseau

* thaldja ameour

جامعة وهران 2_ (الجزائر)

فلسفة

ameurthaldja@gmail.com

Boukrelda zouaoui

جامعة وهران 2_ (الجزائر)

الفلسفة

zouaoui63@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2024/12/31

تاريخ القبول: 2024/12/27

تاريخ الإرسال: 2024/11/27

ملخص:

اعتمد جان جاك روسو على مفاهيم أساسية في بناء نظريته حول العقد الاجتماعي، نذكر منها، الديمقراطية، وسيادة الأمة، والحرية، والمساواة، والعدالة. هذه المفاهيم شكلت حجر الزاوية في المبادئ الجوهرية في الثورة الفرنسية. غير أن أهم مفهوم في بناء النظرية هو المواطنة، حيث قال روسو: لن نصبح بشرا إلا إذا أصبحنا مواطنين، شكلت هذه المقولة جوهر النظرية السياسية في الفكر الأوروبي الحديث والمعاصر، وأعيد طرح المفهوم في الفلسفة المعاصرة، وفي حقل القانون العام، كما شكلت نظرية الإرادة العامة سندا أخلاقيا لمفهوم المواطنة. أشار روسو إلى الحالة الطبيعية، وضرورة الانتقال إلى المجتمع المدني، حيث قام بوصفها، بخصائص مغايرة لما جاء في أفكار هوبز حول الإنسان البدائي، وأشار روسو إلى أن اكتشاف الإنسان للزراعة والصناعة أدى إلى ظهور نظام الملكية الذي أفقد الإنسان حريته، وأصبح عبداً أمام القوي ومع نظرية العقد الاجتماعي تنازل الأفراد عن ملكيتهم، وأسسوا بإرادتهم مفهوم الدولة بمثابة هيئة تديرها القوانين، ويكون للفرد حق المشاركة السياسية. شكلت نظرية العقد الاجتماعي أساساً لبناء المجتمعات السياسية والأخلاقية والمدنية، ومع تطور الأفكار السياسية المعاصرة طرأت عدة تغييرات جوهرية على هذه النظرية التي تم نقدها من طرف مدارس فلسفية كثيرة نذكر، منها: الماركسية والبنوية. الكلمات المفتاحية: المواطنة؛ الحرية؛ المساواة؛ المدنية؛ العقد.

Abstract:

Jean-Jacques Rousseau relied on fundamental concepts in building his theory of the social contract, including democracy, national sovereignty, freedom, equality, and justice. These concepts formed the cornerstone of the core principles of the French Revolution. However, the most important concept in building the theory is citizenship, where Rousseau stated: "We will not become human beings until we become citizens." This statement formed the essence

* المؤلف المُرسَل: ameurthaldja@gmail.com

of political theory in modern and contemporary European thought, and the concept has been reintroduced in contemporary philosophy and in the field of public law. Moreover, the theory of the general will provided an ethical foundation for the concept of citizenship. Rousseau referred to the state of nature and the necessity of transitioning to civil society, describing it in characteristics that differed from Hobbes's views on the primitive man. Rousseau pointed out that the discovery of agriculture and industry led to the emergence of a system of property that deprived individuals of their freedom, making them slaves to the powerful. With the social contract theory, individuals relinquished their ownership and willingly established the concept of the state as an entity governed by laws, where individuals have the right to political participation. The social contract theory formed the basis for the construction of political, ethical, and civil societies, and with the evolution of contemporary political ideas, several fundamental changes have occurred to this theory, which has been criticized by many philosophical schools, including Marxism and structuralism.

Keywords: citizenship; freedom; equality; civil society; contract

1. مقدمة:

عبر "جان جاك روسو" عن الواقع المتردي للمجتمع الفرنسي وعن المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي سادت فترة ما قبل الثورة الفرنسية، فقد عاصر المفكر حقبة تاريخية حرجة لفرنسا، حيث لاحظ ذلك الصراع المرير بين أفراد المجتمع وتردي الأوضاع العامة. إن هذه الظروف اعتبرت بمثابة المصدر الأساسي لأفكاره، يقول: "برتراندراسل " " Bertrand Russel " إن الفلاسفة أسباب ونتائج في آن معا؛ هم نتاج للظروف الاجتماعية، ولما يسود عصورهم من سياسة ونظم سياسية؛ وهم كذلك أسباب، إن أسعفهم الحظ لما يسود العصور التالية من عقائد تشكل السياسة والنظم الاجتماعية، ومن ثم فإن المفكر العظيم هو الذي يعمل بأفكار عصره ويعيد خلقها وهذا ما فعله روسو. (زروخي، 2001، ص 218)

إن الأفكار التي تناولها "روسو" في كتابه العقد الاجتماعي نالت اهتماما كبيرا من مثقفي المجتمع الفرنسي، حيث ركز على مبدأ الديمقراطية وسيادة الأمة. اعتبرت الثورة الفرنسية 1789م، كتاب العقد الاجتماعي بمثابة إنجيلا لها، يقول "جوزيف لا كانال: "إن المبادئ الأساسية الكبرى التي بحثها العقد الاجتماعي والتي تبدو لنا اليوم من

البساطة ووالبداهة بمكان لم تحدث أي أثر يذكر، فالناس لم تعربها أذنًا صاغية بما فيه الكفاية لتستفيد منها، إن الثورة هي التي تولت بنوع ما شرح العقد الاجتماعي..2 (فولغين، 2006 ص 232)

يتضمن كتاب العقد الاجتماعي أربعة كتب، عالج روسو في الأول، الميثاق الاجتماعي، وعرض في الثاني، حقوق السيادة وحدودها، وضمن الكتاب الثالث، دراسة عامة للحكومة وأشكالها المختلفة، أما الكتاب الرابع، فقد خصصه لمعالجة بعض الجوانب المعينة للحكومة.

نقول "روسو": لن نصبح بشراً إلا إذا أصبحنا مواطنين. (عزمي بشارة، 2000، 115) ومن هذه المقولة، نلمس مدى اهتمام المفكر بإشكالية المواطنة التي كانت جزءاً رئيساً بالنظر إلى مجمل تفكيره السياسي. (ديريك هيتير، 2007، 106) وتعتبر أفكار "روسو" في دراسة هذه الإشكالية من الأفكار المعاصرة حيث أدخل مفاهيم جديدة على الحياة الفكرية مثل مفهوم الإرادة العامة الذي أضفى بعداً سياسياً وأخلاقياً لمفهوم المواطنة.

وبغرض تحليل فكرة المواطنة عند "روسو"، سنحاول تحليل العناصر التالية: الحالة الطبيعية وضرورة الانتقال إلى المجتمع المدني، ومفهوم الإرادة العامة، الحرية والمساواة أساس بناء المجتمع السياسي.

2. الحالة الطبيعية وضرورة الانتقال إلى المجتمع المدني:

يعتمد "روسو" على مفهوم الحالة الطبيعية، وهي الوضعية السابقة على ظهور المجتمع السياسي وتأسيس الدولة، ويعلن في كتابه: "أصل التفاوت بين الناس"، أن الإقرار بهذا المبدأ لا يعبر عن حقيقة تاريخية مرت بها البشرية، بل هي مجرد فرضية توضيح طبيعة الوضع، يقول في هذا المعنى، إنه يجب أن لا نعد البحوث التي قد تخوض فيها حول هذا الموضوع حقائق تاريخية، ولكن قياسات افتراضية معلقة على شروط من شأنها أن توضع طبيعة الأشياء أكثر مما تهدي إلى أصلها الحقيقي، أما، وموضوعي، يسترعي الاهتمام بالإنسان على وجه عام، فإني سأجتهد أن يكون أسلوب تعبيرني ملائماً لجميع الأمم، بل إني إذ أتناسى الأزمان والأمكنة، وإذ لا أفكر إلا بالناس الذين أحاطهم، سأفترض نفسي في مدرسة أعيد تلاوة دروس معلمي متخذ أمثال "أفلاطون" و"كسينوقراط" قضاة والجنس البشري مستمعاً. (روسو، 1972، 36).

ينطلق "روسو" في وصفه لحالة الطبيعة من دمنه لمقولة "هوبز": "وهي أن الإنسان ذئب لأخيه الإنسان" وأن حالة الطبيعة تمتاز بحرب الكل ضد الكل يقول "روسو" كان الإنسان البدائي يمشى مطوفا في الغابات بلا صناعة ولا كلام ولا مسكن بلا حرب ولا صلات وبلا حاجة لأقران وبلا رغبة أيضا في إلحاق الأذى بهم (جان جاك روسو، 1972، 72)

إن روسو ينظر إلى الحالة الطبيعية على أنها حالة يسودها الخير والسعادة والفضيلة والأمن، وأن المظاهر التي تناقضها، من شر وظلم، ما هي إلا صفات الحالة الحضارية، لذا سعي هذا النمط من الحياة، بـ فردوس السعادة الحقيقية "إن البشر في الحالة الطبيعية ليسوا صالحين ولا طالحين إذ لا تجمع بينهم أية علاقة أخلاقية أو واجبات مشتركة". (روسو، 1972، 63)

إن الإنسان البدائي بعيد عن المواصفات التي وصفه بها "هوبز"، وهي أنه شرير بطبعه، ولا يملك فكرة عن الخير، وهنا، يمكن القول، أنه طالما اقتنع الناس بحياة الكهوف، واكتفوا بلبس الجلود، فإنهم يعيشون أحراراً وأصحاء وسعداء.

تعود هذه الحياة الهنيئة في نظر "روسو" لمبدأين أساسيين، هما: غريزة البقاء؛ والرأفة، إن الخيرات التي يعرفها في العالم: هي الطعام والأنثى والراحة، أما الشرور التي تخشاها فهي الوجد والجوع. (روسو، 1972، 62)

أما الرأفة فهي التي يكون فيها رجل الطبيعة يتبع المثل القائل: اعمل ما فيه خيرك بأقل ما يمكن أن يلحق من الأضرار بغيرك. (روسو، 1972، 168)

يقول "روسو" فمن المؤكد إذن، أن الرأفة عاطفة طبيعية، وأنها واذ تجد في كل شخص من نشاط حبه لنفسه تساعد على تبادل حفظ بقاء النوع كله. (روسو، 1972، 68).

إن غريزة الرأفة تلعب في الحياة الطبيعية دور القوانين والأخلاق والفضيلة، فهي إذن تخفف من حدة نزوات الأنانية وتسهم في المحافظة على الجنس البشري برمته. فالمشاجرات بخصوص الأرض، أو الأنثى، نادرة للغاية عند المتوحشين، كما أنهم يجهلون التفاخر والخيلاء، ولا يميزون بين ما هو خاصتهم وما هو خاصة الآخرين ولا تصل بهم خلافاتهم إلى حد سفك الدماء. (فولغين، 2006، 213)

إن حالة الطبيعة تتسم من ناحية أخرى، بمساواة تامة بين الأفراد إلى درجة أن التفاوت بينهم يكاد يكون منعدم، والسبب في ذلك يعود إلى أن هذه الحالة تنفي وجود الفوارق بين الأفراد أو عدم أهميتها إن وجدت مما يجعل استعباد فرد لآخر أمراً مستحيلاً، إن حالة

الطبيعة هي حالة أمن واستقرار والإنسان في ظل هذه الحياة يتمتع بحقوق طبيعية وتتمثل في الحرية والمساواة.

الحرية: يقول "روسو": ولد الإنسان حراً وفي كل مكان هو الآن مقيد بالأغلال، فما بالك بواحد من الناس يخيّل إليه أنه سيد الآخرين والحال أنه لا ينفك عبداً أشدّ عبودية.3 (روسو، 2011، 78)

في نظر "روسو" فإن الإنسان يتميز عن الحيوان بالحرية أكثر مما يتميز عنه بالإدراك، يقول في هذا المعنى "الحيوان يقبل أو يرفض بدافع الغريزة الفطرية، أما الإنسان فيختار الرفض أو القبول بملء حريته، ومن ثم فالحيوان لا يستطيع يحيد عن القاعدة التي فرضت حتى ولو كان له نفع في ذلك أما الإنسان فينحرف عنها مراراً. (روسو، 1972، 49)، لذا تبقى الحرية خاصية من خصائص النوع البشري.

المساواة: عاش الأفراد في حالة الطبيعة، وفق مبدأ المساواة، وكان كل إنسان مساوٍ للآخر، ولم يكن هناك أدنى تمييز بين الناس، ولم يكن للتفاوت أساس في الوجود، إن أعظم ما للإنسان من حق هي الحرية والمساواة وعلى إثرهما أسس "روسو" نسقه السياسي، اعتقد "روسو" بأن موقف "هوبز" من الحالة الطبيعية يقوم على فهم خاطئ خاصة عند ما اعتبرها حالة حرب الكل ضد الكل وأن الإنسان فيها ذئب لأخيه الإنسان، وفي نظر "روسو"، فإن أسباب هذه الحرب غير موجودة في المجتمع الطبيعي، حيث لا ملكية فردية يتصارع الأفراد من أجلها ولا حسد، ولذلك فإن ظروف حالة الطبيعة تساعد على بقاء الجنس البشري.

تجاوز الحالة الطبيعية: إن مواصفات الحالة الطبيعية التي أشرنا إليها سابقاً. بدأت ملامحها تتغير وبدأ الإنسان يتحول إلى مرحلة أخرى وهي محاولة بناء المجتمع المدني، فما هي الطريقة التي تم بها هذا التغير؟

للإجابة عن هذا السؤال، قدم "روسو" مثالا من خلال تشبيهه للنفس البشرية بتمثال "غلوكس" حيث يقول: "أنظر إلى تمثال "غلوكس" الذي شوّهه البحر والزوابع، حتى أصبح شبيهاً بوحش ضار منه بآله معبود؟ كذلك النفس البشرية طرأ عليها التغير من خلال اكتشاف شتى المعارف والضلالات وتغيرات في تكوين الأجسام وصدّات شهوات عنيفة مستديمة، فكل هذا، غير مظهر الإنسان. (روسو، 1972، 26)

لقد حدثت معجزة في تاريخ البشر قلبت أحوالهم، حيث لاحظ الإنسان مسألة الجور

والظلم والخداع والتفاوت وهذه القيم منافية لطبيعة الإنسان البدائي، وجاء هذا التغيير نتيجة مجموعة من الظروف والعوامل، وكان على رأسها ظهور مبدأ الملكية، يقول "روسو": إن أول إنسان سور قطعة من الأرض، وقال هذه لي ووجد حوله أناسا بلغت سذاجتهم درجة تصديقه، كان هو المؤسس الحقيقي للمجتمع المدني وكم من جريمة وحرب وقتل وبؤس كان من الجائز أن يوفرها على البشر ذلك الشخص الآخر الذي كان يستطيع أن يخلع الأوتاد ويرفع الحواجز، ويملاً حفرة الحدود ويهيب بالناس، قائلاً: احترسوا من الإصغاء إلى هذا الدجال، واحذروا أن تصدقوا مزاعمه الباطلة (روسو 1972، 79)

إن اكتشاف الإنسان للزراعة والصناعة أدى إلى ظهور نظام الملكية، حيث فقد الإنسان أعلى شيء بملكه وهو الحرية حيث أصبح عبدا بسبب ضعفه أمام القوي وأصبح إلزاما عليه أن يخضع لغيره ليحافظ على بقائه، وظهر في الإنسان الطمع والرغبة في جمع الثروات لينال احترام الجميع مما كان سبب في ظهور المنافسة بين الأفراد.

يقول روسو، في هذا المعنى، إن تكوين جميع الشرور كان أولى نتائج التملك (روسو، 1972، 93). ولعل أبلغ الشرور التي لحقت بالإنسان نتيجة هذا المبدأ هو ظهور اللامساواة. إن بظهور الملكية خطأ الجنس البشري خطواته الأولى نحو الانحطاط وعلى هذا الأساس لم يعتبر روسو "الملكية حقا طبيعيا، بل ظهورها يلعب دورا مشؤوما في تاريخ البشرية. (مهدي محفوظ، 2007، 146)

وقد انتفع "ماركس" بهذه الفكرة في بناء فلسفته السياسية التي تدعو إلى إلغاء الملكية والقضاء على الطبقات (الشنيطي، 1996، 90)

إن الإنسان في المجتمع الطبيعي ليس كما يراه "هوبز" أناني وفاسد وفي حرب دائمة مع الآخرين، بل هو في نظر "روسو" صالح وسعيد، كما أن مساوئ حالة الفترة التي ركز عليها "هوبز" لم تظهر إلا كنتيجة لتطور الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الطبيعي، فعلى الرغم من السعادة والهناء التي وجد الإنسان الأول نفسه فيهما، فقد قابل آخر الأمر، بعض العقوبات الضارة التي اعترضت وجوده في سبيل المحافظة على حياته، مما يجعله يفكر في الخروج من الحياة البدائية، لأن الجنس البشري سيملك ما لم يغير أسلوب معيشته (جان جاك روسو، 2011، 92)

العقد الاجتماعي: إذا كانت سعادة الإنسان في الحالة الطبيعية ترجع إلى تمتعه بالحرية والمساواة، فليس أماننا إلا البحث عن وسيلة تضمن للإنسان المتحضر استمرار تمتعه

بهذه الحقوق الطبيعية ولتحقيق هذا المسعى استعان "روسو"، بفكرة العقد الاجتماعي، حيث "كان لا بد من البحث عن شكل للوحدة، أو الاجتماع، ليظل متمتعاً بالحرية التي كان يتمتع بها من قبل تلك، هي المشكلة الحقيقية والرئيسية التي يبحث العقد الاجتماعي في الحل الصحيح لها) روسو، 2011، 93-). يرى "روسو"، في ظهور المجتمع السياسي والسلطة السياسية والحرية النتيجة المباشرة للعقد الاجتماعي الموضوع بموافقة جميع الإرادات الحرة، وجميع أفراد الجماعة الواحدة، ويكون التزام الفرد داخل الجماعة التزاماً حراً وذاتياً، إن جوهر العقد هو أن يتنازل كل شريك في الاجتماع من شخصه وعن جميع حقوقه للمجموعة كلها). روسو، 2011، 93)

ومن هذا العقد الناتج عن تنازل الأفراد على كل ما يملكون تتكون هيئة معنوية كانت فيما مضى تأخذ اسم المدينة، وتسمى الآن باسم جمهورية أو هيئة نيابية يطلق عليها أعضاؤها اسم دولة.

إن الانتقال من الحالة الطبيعية إلى الحالة المدنية يحدث في الإنسان تغيراً بارزاً، باستبداله العزلة في مسلكه بالعدالة التي تتحقق في أفعاله الأخلاقية) روسو، 2011، 98-99) أسس "روسو" نظرية نقدية لفهم أسباب انزياح الإنسان عن الأخلاق، وأيضاً، لفهم أصل اللامساواة بين البشر، بالرغم من أنهم ولدوا أحرار ومتساوين بالطبيعة، وقد وضع تلك النظرية من أجل تصوير العقد الاجتماعي، كما يمكن أن يكون، وذلك بالبحث في الناس حسب صورتهم وفي القوانين كما يجب أن تكون، إن العقد الاجتماعي يهدف التوصل إلى كيفية تجاوز تشوهات ومصائب الحالة المدنية) عزمي، 2000، 112 (لم يهتم "روسو" حول مسألة تكويني المجتمعات، ولكنه اهتم بالبحث عن النظام السياسي الأمثل الذي يحقق العدل والحرية وهنا طرح "روسو" فكرة الإرادة العامة.

3. مفهوم الإرادة العامة عند "روسو":

إن حالة الطبيعة في نظر "روسو" تعود إلى مبدئين أساسيين، هما: الرأفة؛ وغريزة حب البقاء، ومنه نستنتج، بأن المجتمع السياسي ناتج عن اهتمام الفرد بذاته واحترام المصلحة العامة كهدف أسمى له، وهذه المصلحة تظهر في صورة التمثيل الإرادي. يقول "روسو": إن الإرادة العامة هي دعامة السيادة في الدولة، حيث أن لكل فرد إرادته وحرية والناس يختلفون في شخصيتهم ويتباينون في آمالهم وأحلامهم، ولكنهم يلتقون عند أمر واحد، فهم يودون جميعاً أن يحكمهم حكماً عادلاً يحقق لهم الكرامة، ويؤكد لهم العدالة والمساواة

والإخاء، وإذا كان الناس أفراداً وإرادات، فهل معنى ذلك أن الإرادة العامة هي مجموع الإرادات الفردية أم أنها عنصر جديد يستخلص من اندماج هذه الإرادات كلها؟ إن الإرادة العامة هي وعاء تتبلور فيه بوتقة المجتمع بعد أن تنصهر فيه إرادات الأفراد جميعاً، فهي التعبير العام عن أمل الأفراد وعلى صورة هذه الإرادة يقوم الحكم، فيحقق الحرية والإخاء والعدالة والمساواة.

يميز "روسو" بين نوعين من الإرادة، الأول هو إرادات الأفراد الخاصة الساعية وراء المصالح الخاصة والأفعال الخاصة وفقاً للغريزة الطبيعية لأنانية الفرد، والثاني هو الإرادة العامة، التي لا تسعى إلا وراء المصلحة العامة.

إن الإرادة العامة هي الأساس الشرعي لكل سيادة ويشترط في شرعيتها أن تختص بالمصلحة العامة وأن لا تتخذ قراراتها لمصلحة شخص دون آخر، فلا يراعي الحاكم إلا الصالح العام ولا يرجح مصلحة فردية على أخرى إن الإرادة الجزئية تميل بطبيعتها إلى الترويج أما الإرادة العامة فلا تميل إلا إلى المساواة، وهي تتشكل عندما يتعلم كل فرد كيف يضحي بمصلحته الفردية في سبيل صالح أسمى وهو الصالح العام الذي على إثره يؤسس المجتمع المدني وحيث يوجد الصالح العام توجد الحرية والمساواة. يؤكد "روسو" بأن الحق سواء كان طبيعياً أو مدني يوجد داخل الإرادة العامة التي تتجلى في السيادة والقانون والحكومة، وتعتبر الإرادة العامة قاعدة أساسية للحكم والسلطة وهي تسن القوانين وتراقب تنفيذها كما تعبر عن حاجيات الأفراد ومطالبهم. إن القوانين التي تسنها الإرادة العامة يجب أن تكون صالحة تستهدف المصلحة العامة ومصلحة جميع المواطنين، ويتم ذلك بخضوع جميع المواطنين للقوانين التي تكفل حرياتهم ولهذا فإن المواطن عندما يطيع القوانين فإنما يطيع الإرادة العامة التي هي إرادته وإرادة الجميع. (Dominique schnapper, 2000, 49)

إن الإرادة العامة تمارس وظيفتها عن طريق الحكومة التي هي هيئة موكل إليها تنفيذ القوانين والحفاظ على الحريات المدنية والسياسية وهي تتألف من موظفين مكلفين من قبل صاحب السيادة أو من الشعب بمباشرة السلطات التي تستند لها (جان جاك روسو، 2011، 146) وقد أقام "روسو"، تمييزاً بين الحكومة والدولة حيث الدولة توجد بذاتها وأن الحكومة لا توجد إلا بصاحب السيادة (جان جاك روسو، 2011، 150)

4. الحرية والمساواة:

إن ملكات الإنسان لا يقدر لها أن تنفتح إلا إذا تمتع بحريته التي تمكنه من الخلق والإبداع،

فهو حق من حقوق المواطنة وشرط أساسي لتثبيتها إن تاريخ الإنسان مرتبط بتاريخ حريته وحيث تلمس آثار الحضارة والتقدم نلمس آثار الحرية، وهي مبدأ أساسي لكل وجود إنساني وماهية الإنسان مرتبطة بها حيث انعدام الحرية معناه انعدام إنسانية الإنسان يقول "روسو" إن تخلي المرء عن حريته هو تخلي عن صفته كإنسان عن حقوقه في الإنسانية بل عن واجباته إذ أن تنازلاً كهذا منافي لطبيعة الإنسان وانتزاع كل حرية من إرادته هو انتزاع كل أخلاقية من أفعاله (روسو، 2011، 68)

إن الحرية التي يعنها "روسو" هي حرية معنوية أخلاقية تتمثل أساساً في طاعة القانون الذي شارك المواطنون أنفسهم في سنه والفرد ليس جراً إلا في نطاق المجتمع السياسي ويمكن القول بأنه بالعقد تحكم الفرد على نفسه بأن يكون حر. (dominique schnapper، 2000، 49)

لقد ربط "روسو" بين الحرية والمساواة باعتبارهما يمثلان الخير الأعظم الذي يسعى المجتمع السياسي لتحقيقه يقول "روسو" في هذا المعنى "إذا بحثنا فيما يكون بالضبط أعظم خير للجميع يجب أن يكون غاية كل عام نظام تشريعي لوحدنا أنه ينحصر في هذين الغرضين الرئيسيين الحرية والمساواة الأولى لأن كل تبعية خاصة هي مقدار من القوة ينتزع من هيئة الدولة، والثانية فلأن الحرية لا يمكن بقاءها دونها (جان جاك روسو، 2011، 140)

يختلف "روسو" في نظريته للحرية عن نظرة "جون لوك" لها، حيث يقرن "لوك" الحرية بالملكية أما "روسو" فيقرنها بالمساواة التي لا تساوي بين الجميع في القوة والثراء بصورة مطلقة وإنما يعني فيما يتعلق بالقوة أن تسمو على العنف وأن لا تمارس أبداً إلا بمقتضى القوانين، وفيما يتعلق بالثراء يجب أن لا يكون أي مواطن من الغنى بحيث يستطيع شراء مواطن آخر وأن لا يبلغ أي مواطن حداً من الفقر يضطره إلى أن يبيع نفسه. (جان جاك روسو، 2011، 140)

إعتبر "روسو" بأن فكرة العقد الاجتماعي هي أساس بناء المجتمع وتأسيس الدولة التي هي الإطار العام في الحفاظ على حقوق وحرّيات الأفراد وفي نظره فإن العقد الاجتماعي هو عقد قائم بين أفراد المجتمع أنفسهم وفيما بينهم وليس عقداً قائماً بينهم وبين الحكام، فالعقد عند "روسو" هو عبارة عن إيجاد نوع من الإتحاد الذي يحمي شخصية كل فرد وملكيته ويدافع عنها باستخدامه القوة العامة للمجتمع ويطيع فيه الإنسان الفرد نفسه فقط بالرغم من أنه متحد مع الباقيين (حفوظ، 2007، 147)

بين "لوك وروسو":

ذهب "لوك" إلى أن قيمة أية جماعة بشرية تكمن في قدرتها على توفير السعادة والرضا النفسي للفرد ولاسيما في مجال حماية حقوقه المتأصلة في الملكية الفردية والتمتع بها، وأن حقوقه سابقة على وجود المجتمع، وهذا الأخير نشأ من أجل الفرد ومصالحه أي أن وظيفة المجتمع الأساسية هي: تحقيق المنفعة الفردية، فالمجتمع لا قيمة له في ذاته وتنحصر مهمته في المقام الأول في تحقيق رفاهية الفرد وأمنه لكن "روسو" يعترض على هذا الرأي متسائلا من أين يأتي هؤلاء الأفراد بكل هذه القدرات ان لم يكن من المجتمع؟ ففي داخل المجتمع هناك حرية فردية ومصلحة شخصية بينما خارج المجتمع لا يوجد شيء أخلاقي.

لما كانت الحرية حق من حقوق المواطنة فلا يمكن تحقيقها إلا داخل المجتمع وعليه فالمواطنة في نظر "روسو" هي مجموعة من الحقوق بدونها لا يقوم المجتمع السياسي المنظم ولما كان الأساس الذي يقوم عليه هذا المجتمع هو فكره العقد فإن المواطنة هي قبل كل شيء تعاقد، حيث يتنازل الأفراد عن حريتهم الطبيعية للجماعة قصد الحصول على الحرية المدنية بحيث يكفل المجتمع المساواة بين الأفراد، والدولة هي حاصل ذلك العقد وعلى هذا الأساس يعتمد مفهوم المواطنة عند "روسو" على دعامتين أساسيتين هما: - المشاركة الإيجابية من جانب الفرد في عملية الحكم والمساواة الكاملة بين أبناء المجتمع الواحد كله. أكثر "روسو" على أهمية مشاركة الفرد بصفته مواطنا، وإذا انصرف الناس عن الاهتمام الإيجابي بشؤون الدولة أو إذا منعوا من المشاركة الإيجابية يكون الوقت قد حان لاعتبار الدولة في حكم مفقود وأن المواطن يشعر بتناقص مواطنته انطلاقا من تضائل مشاركته في السيادة. (موريس كرانستون، ، 1970، 80)

والدعامة الثانية لمفهوم المواطنة عند "روسو" هي المساواة بين أبناء المجتمع الواحد، فالمساواة تشكل جزءاً من مفهوم أوسع هو مفهوم المواطنة، وبمقولة الإرادة العامة أظفى "روسو" على المواطنة بعدا جديدا يقوم على تدبير شؤون المجتمع من طرف الرجل المدني الفاعل.

خاتمة:

شكلت المواطنة حجر الزاوية في نظرية العقد الاجتماعي عند "روسو" نتيجة لارتباطها بمفاهيم سياسية أساسية مثل الحرية والمساواة والإرادة العامة هذه المفاهيم تشكل حاليا مبادئ جوهرية في قيام وتوطيد نظام الحكم العادل في العالم وفي بناء الديمقراطية

الصحيحة، لذلك لقيت هذه النظرية في بادئ الأمر شهرة واسعة في الأوساط الفكرية والسياسية الأوروبية وكان لها أكبر الوقع على رجال الثورة الفرنسية وعلى إعلان حقوق الإنسان المواطن الصادر من الجمعية الوطنية الفرنسية سنة 1789 هذه الوثيقة مثلت قطيعة مع الأنظمة القديمة وساهمت في تطوير مفهوم المواطنة نحو ممارسة سياسية تعتمد على المشاركة الواسعة للمواطنين في تسيير الأمور العامة للدولة والمجتمع وفي الآن نفسه أعلن مفهوم المواطنة نوع من تقييد قوة السلطات، قال "كانط" عن نظرية العقد الاجتماعي ومفهوم المواطنة عند "روسو" بأنه قد وضعه في الطريق المستقيم ومنه تعلم احترام الطبيعة الإنسانية واعتبر نفسه أقل فائدة من ذلك العامل العادي واعتبر أن فلسفته لم تساعد البشر العاديين على إثبات حقوقهم.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

- جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي أو مبادئ القانون السياسي، ترجمة: عبد العزيز ليب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2011.

- جان جاك روسو، أصل التفاوت بين الناس، ترجمة بولس غانم، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع - بيروت - 1972.

ب - المراجع:

- اسماعيل زروخي، دراسات في الفلسفة السياسية، دار الفجر للنشر والتوزيع، ط1، 2011.

- بشارة عزمي، المجتمع المدني دراسة نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، 2000.

- هيتير ديريك - تاريخ موجز للمواطنة، ترجمة آصف ناصر ومكرم خليل، دارالساقى للترجمة، ط1، 2007.

- موريس كرانستون، أعلام الفكر السياسي، دار النهار للنشر - بيروت، ط1، 1970.

- محفوظ مهدي إتجاهات الفكر السياسي في العصر الحديث المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط3، 2007.

- ف - فولغين، فلسفة الأنوار، ترجمة هنرييت عبودي، دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان، ط1، 2006.

- محمد فتحي الشنيطي، نماذج من الفلسفة السياسية، مكتبة القاهرة الحديثة، د.ط، 1961.

المراجع باللغة الأجنبية:

Dominique schnapper, qu'est ce que la citoyenneté? edition gallimard, Paris 2000